تحليل تطور الفكر القومي العنصري في المانيا

(١٩٢٠-١٩٤٥)

نژيار نعمان عبدالله[١] كاروان صالح وەيسى[٢]

[١] قسم التاريخ، فاكلتي العلوم الإنسانية، جامعة زاخو، إقليم كوردستان، العراق
[٢]قسم التاريخ، فاكلتي العلوم الإنسانية، جامعة زاخو، إقليم كوردستان، العراق

المستخلص

نمى الشعور القومي في أوربا بشكل عام وفي المانيا بشكل خاص في النصف الثاني من القرنين التاسع عشر والعشرين وأدى نمو هذا الشعور بدوره إلى بروز وتنامي عاطفة أكثر حيوية وأكثر عمقا وذات مكانة وتأثير وهي عاطفة التضامن بين أعضاء الأمة الواحدة والتي شكلت فيما بعد البؤرة الاساسية لروح التضامن المتطرف. ولكن ما يثير حساسية النمو المفرط لعاطفة التضامن هي مسالة مرافقتها لنمو الشعور بالكرامة الوطنية والشرف القومي والحس بالمصير القومي للعرق أو الجنس أو الطائفة وغيرها من المسميات الأخرى المدرجة كبيرة وصلت إلى حد إنكار كافة حقوق الاخر-المختلف طبعا- سواء داخل حدود الوطن أو معاداة دولة محادة جغرافيا على هذا الاساس الضيق من العنصرية المغلقة بمكونتها، وفي الوقت نفسه نمت الرغبة في فرض الأسبقية وأهلية الصفات القومية بدا من أبسط أشكال الاختلاف بين القوميات منها الشكل و الجنس مثلا إلى أعقد وأعمق أوجه الاختلافات الاخرى و التي تتعلق بعضها بالصفات الخارجة عن الإرادة البشرية، وبدا مسالة التأكيد على أهمية الشعور القومي وفرضه على مرأى ومسمع من العناصر الأجنبية الأخرى الموجودة في نفس الدولة مما تسبب في ظهور أزمة تقبل الاخر أو الطرف المختلف قوميا. لقد اختفى معنى كلمة القومية مع الزمن ولم يتحدد أو يظهر مرة اخرى حتى أيامنا هذه. وما ذلك إلا لاختلاف العقليات التي تنظر إلى مفهوم القومية. ولذا فالتعقيد والغموض والالتباس مازالت تجري تحت أقلام المفكرين والمهتمين بدراسة الأمة والعاطفة القومية.

مفاتيح الكلمات: التاريخ، التطرف، المانيا النازية، مدارس الفكر القومي، الفكر القومي

١. المقدمة

عرف عن تاريخ القرن التاسع عشر والقرن العشرين بكونه مطبوعاً بطابع الحركات القومية والتحررية. وتاريخ هذه الحركات يدعونا لأن ننظر إلى التاريخ من وجهة نظر الفكرة القومية والمبدأ العنصري. فالفكرة يقصد بها مفهوم القومية، والمبدأ يراد منه تبني الفكرة كهدف وغاية ومبرر للسياسة المتعبة في سبيل التحرر وبناء الدولة القومية وقد كان هذا دافعا مباشرا وراء اختيار هذا العنوان، وقد تم تناول موضوع تحليل الفكر القومي المتطرف في هذا البحث بشكل مميز بعيدا عن ذكر الوقائع و الاحداث بل اقتصر على التحليل المعطقي لماهية هذا الفكر و مراحل تطوره وذلك في فقرات ومباحث تأريخية دقيقة فقد تناول المبحث الأول عوامل نوء وبقاء القومية أما المبحث الثاني فقد تناول الارهاصات الأولى لتشكيل الوحدات القومية العنصرية، في حين جاء المبحث الثالث تحت عنوان الحس القومي و الشعور العنصري، أما المبحث الرابع فقد جاء تحت عنوان التطلعات القومية العنصرية الاربعة صورها و تناقضاتها وهو بحد ذاته يشكل العمود الفقري للبحث من حيث اهميته لمعرفة المراحل التي نمى فيها الفكر العنصري صورها و تناقضاتها وهو بحد ذاته يشكل العمود الفقري للبحث من حيث اهميته لمعرفة المراحل التي نمى فيها الفكر العنصري أما المبحث الخامس فقد جاء تحت عنوان ظهور الايدولوجية الحديثة وأبرز صورها أما المبحث السادس والاخير فقد ركز على دراسة الفكر القومي في المانيا النازية التي شكلت الحجر الاساس لجميع الافكار العنصرية في العصر الحديث. وينبع اهمية البحث من عدم الحصول على أي دراسة وكتاب متخصص بتحليل هذا الفكر بشكل دقيق ومنفرد، أما بخصوص المصادر فقد اعتمد على مصادر مهمة انكليزية وعربية والاهم هو الحصول على وثائق اجنبية مهمة مرفقة بقائمة المصادر والمراجع.

مجلة جامعة كويه للعلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد ٣، العدد ٢ (٢٠٢٠).
أستلم البحث في ٢٨ أيلول ٢٠١٩؛ قُبل في ٩ كانون الثاني ٢٠٢٠
ورقة بحث منتظمة: نُشرت في ٣١ كانون الاول ٢٠٢٠
البريد الإلكتروني للمؤلف: nijiar.nouman@uoz.edu.krd
حقوق الطبع والنشر © ٢٠٢٠ **نژيار نعمان عبدالله، كاروان صالح وەيسى**. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية CC BY-NC-ND 4.0-.

Original Article |**DOI:** https://doi.org/10.14500/kujhss.v3n2y2020.pp70-79

٢. عوامل نشوء وبقاء القومية:

يرجع أصل كلمة القومية إلى القوم وتعني الأمة، أما تفسير تطور الفكر القومي في منتصف القرن التاسع عشر فله تفسيران: الأول وهو نظرية القومية الواعية أي نظرية المفكرين الفرنسيين؛ والثاني نظرية القومية اللاواعية وتعني نظرية الفلاسفة الألمان. وليست هاتان النظريتان نتاج اتفاق أو تصادف، بل على العكس، لقد كانا تعبيرين لتاريخين وتطورين متناقضين في المانيا وفرنسا وإيطاليا (خليل، ٢٠١٤، ١٦٢). إن نظرية القومية الواعية، النظرية الفرنسية، ترجع إلى أصلها إلى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (شوفالييه، ٢٠٠٦، ٤٧٥) في كتابه (العقد الاجتماعي)، وفيه يرى أن أساس المجتمع يقوم على ارتباط المواطنين، أي أنه يقوم على فكرة (العقد). ثم سعت هذه النظرية بآراء وأفكار تتلخص في احترام الشخص الإنساني واستقلاله وعدم فرض إرادة أجنبية عليه أو الاعتداء على حق الآخرين. ومنها يستنتج أن ارتباط الأفراد في مجتمع من المجتمعات يخلق فيما بينهم روحاً عامة مشتركة ويجعل منهم أمة؛ وإن الدولة، التي هي الكيان السياسي للأمة، تقوم على هذه الروح الاجتماعية. وأما نظرية القومية اللاواعية فتقول: "إن لمعرفة انتماء شعب لقومية معينة يكفي الرجوع إلى الإمارات الخارجية وملاحظة ما إذا كان هذا الشعب يبدي إمارات معينة موجودة عند شعب آخر، عندئذ يمكن أن يستنتج بأن هذين الشعبين ينتميان إلى قومية واحدة. وأهم هذه الإمارات وحدة اللغة" (موسوعة، ٢٠٠٦، ٢٥).

النظرية الألمانية في القومية القائمة على وحدة اللغة ترجع في أصلها إلى الفيلسوف هردر[1]. فقد كان يرى في اللغة روح الشعب، ويعتبرها خير معبر عن فكره ومزاجه وحساسيته وأصالته. وهذا يعني أن القومية كائن عضوي ظاهرته الأساسية اللغة. ولا شك في أن مفهوم النظرية الفرنسية ومفهوم النظرية الألمانية قد تطور مع الزمن، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن أساسها ظلا باقيين، وما تزال الحركات القومية في القرن العشرين مطبوعة بطابع هاتين النظريتين من حيث الارتباط الحر والإرادة المشتركة واللغة. ومما يكن من أمر فأن عامل العاطفة القومية تلعب دورها الأساسي في تاريخ الشعوب المعاصرة. غير أن المؤرخين الماركسيين، ومن جرى على سننهم من أنصار مذهب المادية التاريخية، يسقطون من حسابهم أهم الأفكار والعواطف في تاريخ البشرية وينزعون إلى تفسير حوادث التاريخ بعوامل اقتصادية. وهذا النوع من التفسير صحيح إلى حد ولكنه لا يخلو من مبالغة، لأنه في تاريخ العالم المعاصر لا يهمل شأن هذه العوامل وفي بعض الأحيان تعطى قيمة كبرى، إلا أنه هناك حالات أخرى لا يمكن أن تفسر فيها الحوادث إلا بعوامل فكرية وعاطفية، وما ذلك إلا لأن بعض الشعوب تفضل إرضاء مصالحها المعنوية وتطلعاتها الروحية على إرضاء منافعها المادية (موسوعة، ٢٠٠٦، ٤٩).

وقد ينشأ عن هذا الشعور مبالغات مثل العصبية (الشوفينية)[2] أي الحب الفائض للأمة الذي يدفع المواطن إلى الاعتقاد بأن أمته أسمى الأمم. وأخطر من ذلك القومية – العرقية – التي تنسب الأمة إلى عرق يسمو على الأعراق ومن حقه أن يقتطع لنفسه مجالاً حيوياً على حساب الآخرين والقوميات الأخرى. ولقد كانت النازية أكبر ظاهرة متطرفة لهذه القومية. والمصدر الأساسي للصعوبات التي تعترض في فهم معنى القومية هو تعدد العوامل التي تدخل في نشأة وتشكيل العاطفة القومية، والتي يجب ألا يهمل واحد منها، وهي كما يلي:

الأرض: أن الحياة المشتركة في مكان واحد تولد تماثلاً بين أنواع الحياة، التي تتعلق إلى حد كبير بشروط المناخ والتضاريس ونظام المياه والنبات، ويمكن أن تؤدي غالباً إلى (وحدة ثقافية). بيد أن هذا التماثل لا يكفي مع ذلك لخلق أمة. فهنالك أمثلة كثيرة عن بلاد لم يؤد فيها تجانس الشروط الجغرافية إلى تقارب أو صهر بين جماعات مازالت مستمرة، بعد قرون من التعايش، في مقاومة بعضها بعضاً كحالة ترانسفالنيا. وليست الأرض كذلك عنصراً ضرورياً، لأن عاطفة التضامن بين أبناء الأمة الواحدة يمكن أن يظل حياً ومحافظاً عليه بالرغم من ضياع الأرض، أو من فقدانها البتة (انجلز، ١٩٦٨، ٣٩).

العرق: أن التشابه بين الصفات الجسدية، من حيث الهيكل الجسماني وشكل الجمجمة والأنف والعين ولون الجلد، يمكن أن يؤلف عامل تضامن بين الناس. حتى أن غوبينو، الذي كتب في تفاوت الأعراق، اعتقد بأنه يستطيع أن يستنتج بأن الشعوب ذات الميزات الاثنوغرافية الواحد تنتسب إلى قومية واحدة. ولكن أعمال الاثنوغرافيين دلت في هذا المجال على أن الأمم الكبرى ليس لها وحدة عرقية، وأن المناطق التي تشاهد فيها هذه الوحدة نادرة: مثل منغوليا وهضبة إيران وبلاد الأناضول الداخلية وشبه جزيرة العرب. وحتى في هذه المناطق لم تسلم الشعوب من التحيز العرقي (كابيتي، ١٩٩٤، ٩٩).

اللغة: من المؤكد أن استعمال لغة واحدة يعين تشابها بين أشكال الفكر ويشجع على تشكيل تراث المفاهيم المشتركة. ويقول الفيلسوف فيخته في هذا الشأن: "أن من يتكلم لغة واحدة كل ربطته الطبيعة المحضة سلفاً بروابط عديدة وغير مرئية" (حسين، ٢٠٠٩، ١٥٤). وترى الحكومات الحديثة الفوائد التي تتأتى عن وحدة اللغة في نمو التضامن القومي، وتحاول إقامة الوحدة اللغوية على أرضها. ومع ذلك فقد تشكل الوجدان القومي في بلاد يختلف سكانه لغة، كما في سويسرا وبلجيكا. كما إن استعمال لغة واحدة لا ينفي الاختلاف بين الناطقين بها، وأن العاطفة القومية والانتماء إلى جماعة لغوية يمكن أن يكونا مختلفين (انجلز، ١٩٦٨، ٣٩).

الذكريات التاريخية: تعد من العناصر المهمة التي تؤثر في نمو العاطفة القومية. فهي تذكر بالأبطال والنضال وبالآثار الكبرى التي سجلت في العالم أشعاع الدولة ونفوذ شعبها ويصر عليها بإلحاح في حال المرارة والنكبات الحديثة لرفع معنويات الشعب واستعادة قوته ونشاكه بعد محاولات قمعه وإنهاء وجوده.

التقاليد: تعتبر التقاليد والعادات عاملاً مهماً من عوامل بقاء القومية شريطة أن يكون لها صدى في عقلية الشعب الجماعية، لا أن تكون قاصرة على بعض الأوساط الفكرية أو السياسية. وهذه التقاليد تضيف لوناً خاصاً للعاطفة القومية كتقاليد الحرية في الولايات المتحدة الأميركية، والانعزالية الإنكليزية. ولكن هذه التقاليد قلما تكون عفوية. فقد نحتها وصاغها رجال الدولة والكتاب السياسيون وغذاها الناشرون. هي على ما يبدو نتيجة لوجود الأمة وليست سبباً لتشكل عاطفة قومية" (حسين، ٢٠٠٩، ١٥٤).

الحضارة الفكرية: أن نشأة الشعور القومي تفترض وجود حضارة. فنمو الأدب وإشعاع الفكر وتكوين قيم حضارية، إن كل ذلك يؤلف عنصراً هاماً في نمو العاطفة القومية. ولكن وحدة الحضارة لا تكفي لصنع أمة. فقد وجدت بلاد كبرى ذات حضارات عريقة ولم يظهر فياه الوجدان القومي إلا في وقت متأخر جداً.

الدين: لا شك أن الإيمان بدين واحد في جماعة بشرية معينة يعتبر شرطاً ملائماً لنمو التضامن بين أعضاء هذه الجماعة. ولقد حصرت الحكومات على إبقاء الوحدة الدينية في داخل بلادها للحفاظ على قوة الدولة وتماسك أبنائها. وفي هذه الحالة يصبح الدين أداة سياسة. ولكن بعض الوحدات القومية تحققت بالرغم من الاختلافات الدينية. وكان الدين في بلاد أخرى عائقاً في تحقيق الوحدة القومية، وأدى أخيراً إلى تقسيم البلاد إلى وحدات سياسية، كما في الهند (شفلين، ٢٠٠٦، ١٩٩).

الظروف الاقتصادية: أن التضامن، الذي يقوم على المصالح المادية للمنتجين أو التجار في منطقة من مناطق العالم، كان عنصراً ملائماً لنمو العاطفة القومية. ففي القرن التاسع عشر، ساهم وجود الاتحاد الجمركي في نجاح الحركة القومية الألمانية، لأن الوحدة الجمركية ساعدت على تهيئة الاتحاد السياسي، ولكن تاريخ الاتحاد الجمركي نفسه يدل على أن التضامن، الذي قام بين دول جنوبي ألمانيا وبروسيا من ١٨٥٠ في نطاق الاتحاد الجمركي، لم يمنع هؤلاء الرفقاء من أن يحمل بعضهم السلاح على الآخرين عام ١٨٦٦ (Craig، ١٩٩٤، ٣٢).

ولقد أخذت (قضية القوميات العنصرية) ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر شكلين متكاملين غالباً. فمن جهة كانت القومية قوة تجمع، ومن جهة أخرى قوة تفتيت: لقد حملت قوة التجمع الشعوب، التي تنتمي إلى قومية واحدة وتعيش في دول مختلفة، إلى الاتحاد في دولة واحدة. ولذا كان هدف هذه الحركة تشكيل الوحدات القومية مقام التجزئة السياسية. وأما قوة التفتيت فقد دفعت الشعوب الخاضعة لسيطرة دولة أجنبية عنها إلى التحرر من نير هذه السيطرة وإقامة الدولة القومية. وهذه حال الأقليات القومية، أو حال بلد أحتله الأجانب فتقاسموه واختص كل واحد منهم بجزء منه.

٣. الإرهاصات الأولى لتشكيل الوحدات القومية العنصرية:

في البدء كان لتشكل الوحدات القومية دور مسيطر في ظهور النزعات القومية خلال المدة من ١٨٥٠ – ١٨٧٠ وقد تمت هذه الوحدات بشكل دولة اتحادية كما في الوحدة الألمانية، أو بشكل دولة وحدوية كما في مملكة إيطاليا (تسن، ٢٠٠٢، ١١٧).

أما قضية الأقليات القومية فقد كان جورها نشيطاً بعد ١٨٧٠. وقد استطاعت هذه الأقليات أن تحقق شيئاً فشيئاً الاستقلال الذاتي، أي أن يكون لها الحق في أن تصنع قوانينها الخاصة بنفسها عن طريق مجالسها المنتخبة، ومن ثم الاستقلال التام لأنها لم تكتف بالمطالبة بالحرية الواسعة في النمو السياسي بل أرادت أن تنفصل عن الدولة التي عاشت في ظلها حيناً من الزمن، وتحقق ذاتها القومية في ظل هذه الاستقلال الذي حصلت عليه.

أن تشكل الوحدات القومية العنصرية كان يغلب عليه اهتمام أساسي: وهو أن يفيد من وضع الشعوب الناطقة بلغة واحدة ولها تراث مشترك من الذكريات التاريخية ولكنها تابعة لولاءات سياسية مختلفة، ويطبع في ذهنها الرغبة في العيش المشترك في ظل دولة واحدة. وهذا يعني وجود حالة فكرية يجب تغذيتها وإمدادها وتوسيع انتشارها. ولكن هذه الحالة لا تخلو من عقبات ومقاومات، أهمها: التعلق بالتقاليد الموروثة، وقوة الروابط الشخصية المعقودة في داخل الدول الموجودة، والخوف من ضياع الأوضاع المكتسبة والمنافع الاقتصادية القائمة، والولاء لعهد معين، ورغبة الأطر الإدارية في الحفاظ على الأوضاع التي تفيد منها (صالح وعبد الكريم والسامرائي، ١٩٨٥، ٤٨).

وللتغلب على هذه النعرات العاطفية المختلفة وجب القيام بتنظيم دعاية خاصة تبعث في الشعوب الشعور والوعي بالقربى، وتبين لها فوائد التبعية والانتماء إلى دولة كبرى. ولقد كانت هذه الدعاية تلح خاصة على المظور السياسي أكثر مما تلح على الفوائد الاقتصادية، وتسعى جاهدة للبرهان على أن تشكل الوحدة السياسية يمهد السبيل إلى القوة.

ولكن النشاط الذي قام به بعض رجال الفكر لم يكن وحده كافياً ليعطي لهذه الحركات القومية سيماءها ففي كل بلد قامت فيه هذه الحركات كان لسياسة السادة الموجهين والحكومات دور هام، أما لأنهم شجعوها باعتبارهم سيفيدون منها في المستقبل مثل أغلب الشعوب التي مرت بهذه التجارب العنصرية قديما وحديثا، وأما لأنهم قاوموا فيها لكونها خطرة على منافعهم وفي الواقع أن قوى الهجوم في هذا الحقل كان على درجة من التنظيم تفوق قوى الدفاع، وكانت تمتاز بالاندفاع والحركة وبذل الجهد لتحيل العقلية الجماعية (حاطوم، ١٩٩٨، ١٣).

وأبدت حركات (الأقليات القومية) في كل مكان صفات مشتركة، فقد ظهرت في الغالب بشكل نضال يومي قائم بين الأقلية والإدارة بسبب لغة الدولة الحاكمة في التعليم، أو بسبب الحوادث التي يثيرها في الحياة الإدارية والقضائية استعمال اللغة الرسمية التي تختلف عن اللغة التي تتكلم بها عامة الأقلية. وبالإضافة إلى هذه الملامح العامة نجد أن التحليل التاريخي في دراسة كل قومية على حده يكشف عن حالات مختلفة.

وفي هذه الحركات أو تلك كان عمل المفكرين حاسماً، فقد أحيوا الذكريات التاريخية وفهموا أهمية وحدة اللغة، وعرفوا كيف يتعضون العواطف الغارقة في سباتها العميق، ويبعثون فيها القوة والحياة. وفي كل هذه الحركات تتردد أسماء الفلاسفة ورجال الآداب ومؤرخو اللغة والأدب والحقوق أكثر من أسماء رجال المذاهب السياسية. وكان نشر هذه الأفكار يتم في الأوساط الثقافية والفكرية عن طريق التعليم الثانوي والجامعي والآثار الأدبية والتاريخية. أما في الأوساط الشعبية الواسعة فكانت تنتشر عن طريق الصحافة اليومية والدوريات والدعاية ووسائل الإعلام الأخرى (صالح ،عبد الكريم والسامرائي، ١٩٨٥، ٤٨). وفي كل هذه الدعاية تحتل المواقف الحاسمة والأمجاد القومية والتقاليد الشعبية المكان الأسمى.

مما تقدم تبين أن القومية العنصرية لا تتولد بين ليلة وضحاها وإنما هي وليدة أفكار وعواطف تتفاعل مع بعض، وتؤلف قوة نشيطة تحرك الشعوب وتدفع بها إلى تحقيق الذات القومية. بيد أن بلوغ هذا الهدف كثيراً ما يكون بعيداً أو صعب المنال ويحتاج إلى تخمر فكري وإعداد عاطفي وجهد متواصل ومرور زمان تؤدي كلها إلى ما نسمه (الشعور القومي) أو (الوجدان القومي) أن (الوعي القومي) وفي النهاية قد تتطور لتأخذ شكلها العنصر أو التطرفي[3].

وهذا الوعي العنصري على درجات ويبدأ من مرحلة العاطفة الوطنية، أي حب البلد الذي يعيش فيه الإنسان، بلد الآباء والأجداد، بلده الذي يحن إليه إذ نأى عنه، ويحميه إذا اعتدى عليه، بلده الذي يكون عنده موضع عطف وحب وإعزاز، ينتهي بمرحلة التفكير القومي. وليس لهذه المرحلة حد، ولكن المراد منها هو جمع شمل أبناء القوم الواحد ولم شعثهم والخلاص من الأجنبي الذي يرزخون تحت نيره، أن وجد، وإنشاء دولة مستقلة تضم تحت لوائها من تجمعهم وحدة الأفكار والمصالح والذكريات والرغبة والإرادة في العيش المشترك ضمن إطار جغرافي معين تحدده في الغالب وجهد المستطاع اللغة القومية.

٤. الحس القومي والشعور العنصري:

أن البحث في الشعور القومي يتطلب البحث في الشعور العنصري أيضاً. إذ يوجد بين المفهومين كثير من أوجه التقابل، وليس من السهل فصلها أحياناً. والتمييز بينها نظرياً سهل فالشعور العنصري يتألف من الاعتقاد بوجود اختلاف طبيعي عميق لا يتغير بالتربية والتماثل، في حين أن الشعور القومي يفترض مجرد الاختلاف التاريخي والاجتماعي الذي يمكن المجتمع أن يغيره. بيد أنه يبدو أن قليلين من الناس لديهم أية فكرة واضحة عن هذا الفرق عملياً. فالأغلبية العظمى لا تدري عنه شيئاً وتفسر

الاختلافات القومية باستمرار على أنها اختلافات عنصرية. بل أن قوة العنصرية كبيرة لدرجة أن المتعلمين علماً عالياً الذين يعرفون هذا الفرق وينبذون المذاهب العنصرية كثيراً ما ينزلقون دون وعي في المشاعر العنصرية والتفكير العنصر. وبالمثل قد يعارض الناس بإخلاص الكراهية الطبقية، ومع ذلك فأنهم في بعض الحالات العملية يظهرون عوارض التحيز الطبقي هم أنفسهم[4].

والعجرفة العنصرية والنفور والتحيز والعنصريات أشد عنفاً وتعصباً من المشاعر القومية المقابلة. فالنفور القومي يخفف من حدته ويقيد عادة الاعتراف بنوع من المشاركة في المعايير الثقافية والأخلاقية بين الأمم المتنافسة. وكقاعدة عامة لا ينكر أن هناك شيئاً طيباً أو بعض الحق لدى الجانب الآخر – والأفراد الذين ينتمون إلى أقلية قومية ويأخذون جنسية الأمة الحاكمة يكونون موضع ترحيب ويتمتعون بمعاملة وحقوق متساوية. بيد أن هذا لا يحدث إذا كان لون الجلد مختلفاً أو إذا صمت الأقلية بأنها من عنصر أدنى نتيجة للدعاية والإيديولوجية العنصرية. ففي الاضطهادات السابقة التي تعرض لها اليهود كان اليهودي الذي يعتنق المسيحية وينبذ بذلك عاداته ولغته وعزلته السابقة، والتي تؤلف شبه جنسية، ينجو من الاضطهاد بعد ذلك (هرتز، ٢٠٠٩، ٦٤). ولكن في ظل حكم النازي لا يؤدي ذلك إلى أي فرق في المعاملة، لأن الخصائص اليهودية تعتبر سمات عنصرية لا يمكن أن تمحى. ويجنح الازدراء العنصري إلى إنكار أن هناك أي شيء مشترك بين العنصر المحتقر والآخرين ويحط من قدره كما لو كان نوعاً من الماشية أو يأنف منه كما لو كان من الحيوانات الضارة التي تشمئز منها النفس.

والاعتقاد العنيف لدى شخص ما بتفوق عنصراً من المذاهب التي تجنح لأن تصير نوعاً من التسلط العقلي. فالتمييز العنصري قد يبدأ ضد العنصر الأسود، ثم يمتد إلى العنصر الأصفر، ثم إلى الأوروبيين من أهل الجنوب أو الشرق واليهود، وأخيراً تتوتر العلاقات بين العناصر في البلد. والعنصرية إذا لم تقيد بشدة تشجع على نمو الظلم وعدم الإنسانية والتعصب بصفة عامة. وسرعان ما تتدهور جميع العلاقات فالعنصر المسيطر يعتبر أن الشرف يقتضي الإصرار بشدة على الامتيازات العنصرية وتوسيع نطاقها، وكل اقتراح بالتفاهم يفسر بأنه خيانة قومية. ويصير العنصر المضطهد في حالة توتر شديد يشك في كل ملاحظة على أنه اهانة ويتصور اعتداء حتى عندما لا يكون هناك اعتداء. ومن ثم فأن الصراعات القومية تصير غير قابلة للحل عندما تأخذ طابع العداء العنصر (كروزية، ٢٠٠١، ٢٩٤).

اما بالنسبة لنقاط الخلاف الرئيسية في الصراعات العنصرية فهي:

١. حق التزاوج، فالجنس المتميز كثيراً ما يضع قيوداً قانونية أو اجتماعية تحرم التزاوج مع الجنس الأدنى وإنكار حق الزواج المختلط قد ينشأ أيضاً عن أسباب دينية أو طائفية أو بسبب المركز أكثر مما يقوم على أسس عنصرية.
٢. فرصة عادلة للارتقاء الاجتماعي. وعدم المساواة في فرص الحصول على العمل المجزي والتعليم الأعلى والوصول إلى مركز اجتماعي أفضل والحصول على نصيب في الحقوق السياسية لا يثير بالضرورة العداء العنصري. ولكن إذا كان الجنس المسيطر يحتفظ لنفسه بجميع المراكز الطيبة والتعليم المتقدم كله والنفوذ السياسي بأكمله، وإذا كان الجنس المضطهد قد حكم عليه بأن يعيش في ظروف تعسة إلى الأبد بدون أمل في التحسن، يكون من العسير ألا تعتبر هذه المعاملة احتقاراً عنصرياً.
٣. إمكانية الاتصال الاجتماعي حتى داخل الأمة الواحدة بحيث لا يوجد اتصال اجتماعي كثير بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا. ولكن عدم وجود أي اتصال اجتماعي بين الطبقات المتقابلة في الأجناس المختلفة لابد أن يثير التنمر العنصري ويؤدي إلى نفور كامل بين المعسكرين (كروزية، ٢٠٠١، ٢٩٤).

والتنافس القومي بين شعبين يعيشان جنباً إلى جنب كثيراً ما يزيد حدة بسبب الاختلاف في الثراء والتربية والنفوذ السياسي وعدم وجود فرص للاتصال الاجتماعي وللفهم المتبادل والتماثل. وفي مثل هذه الظروف يجنح كل جانب إلى العزلة وتجنب أي اتصال بالجانب الآخر. ويصبح الأمر متوقفاً على مدى الإحساس بالفرقة وعلى الذكريات التاريخية ليتحول إلى عداء عنصري. وإذا بلغ هذه النقطة يصير من المستحيل تسوية النزاع مطلقاً وحتى إذا وجد حل عادل ومعقول فأنه لا يقبل عندئذ، لأن المشاعر العنصرية تراكمت أكثر مما ينبغي ويصير التنمر من الأخطاء الماضية وعدم الثقة في حسن نية الطرف الآخر والعوامل النفسية الأخرى حاجزاً لا سبيل إلى التغلب عليه[5].

والتحالف الحديث بين النزعة القومية والعنصرية له أثر غريب في الحيلولة دون تحقيق الأهداف الأساسية للتطلعات القومية. فالشعور القومي يسعى إلى وحدة قومية وتضامن وثيقين، ولا يتفق هذا مع الفوارق الحادة التي تقوم على المرتبة لا مع نظام الطائفة الوراثية داخل الأمة. بالإضافة إلى أنه يجنح إلى توسيع نفوذ الأمة وهيبتها، أما عن طريق نشر المدينة القومية سلمياً أو في مرحلة النزعة القومية، بالغزو وبإرغام الشعوب المغلوبة على التماثل بالقوة. ولكن العنصرية تعرقل هذه الاتجاهات إلى التوسع والتماثل. فالجنس الأدنى لا يمكن إرغامه على التماثل، وكل ما يمكن حياله هو استئصاله أو إرغامه على الخضوع بالقوة. فضلاً على أن مذهب الدم النبيل المتأصل في العنصرية يؤدي إلى إقامة حواجز طائفية داخل الشعب الذي تسيطر عليه أيديولوجية العنصرية وبذلك يعمل على تدمير الوحدة والتضامن القوميين.

٥. التطلعات القومية العنصرية الأربعة صورها وتناقضاتها:

كان المجتمع في القرن ١٦ يقوم إلى حد كبير على جماعات تربطها رابطة الدم الحقيقية أو المفترضة، ولم يكن للشعور القومي أو العنصري أي دور كرابط للجماعة. ويبدو أن العزلة أو النفور من الأجانب كان ينبثق في الغالب على أساس من الدين أو السحر. لكن ليس هناك دليل على النفور العنصري غريزة طبيعية برغم أن نفور الجماعة من الأجانب أو الدخلاء قد يكون له أصل غريزي والظاهر أن الشعور العنصري انبثق إلى حد كبير من الاختلافات والنزاعات الاجتماعية. ويمكن تتبعه في حالات كثيرة إلى ظهور طبقات قوية اعتبرت نفسها، واعتبرها الآخرون، ذات دم نبيل ولها الحق في مركز ممتاز يطوي على العزلة كطائفة[6].

ويتسم التاريخ الألماني إلى حد ما بعداوة حادة وبصورة غير عادية بين المراتب الاجتماعية والطبقات، وكان ذلك من العقبات الرئيسية في سبيل التضامن القومي والوعي القومي. ونفس الاتجاه كان موجودا في فرنسا، وإن كانت بعض العوامل المضادة قد وقفت ضده، وفي اسبانيا أدى الصراع الطويل بين المسيحيين والمسلمين إلى تمجيد الفضائل الحربية وإلى مذهب (الدم النقي)، أي النقي من الاختلاط بدماء المغاربة واليهود. وقد تشربت الأمة الإسبانية بعد انتصارها باعتقاد أن الخدمة في الجيش هي وحدها المهنة الشريفة، في حين احتقرت التجارة والصناعة والزراعة التي كانت في يد الكفرة واليهود. ويقول أحد الدارسين الإنجليز: "بلغ الحماس من أجل نقاء الدم في القرن السادس عشر مستويات نازية وصارت الشهادات التي تصدرها محاكم التفتيش من المتطلبات الأولى لأي عمل طموح" (فيرمي، ١٩٥٢، ٧٧). وأخيراً طرد المغاربة واليهود، وكان لهذا الانتصار العنصري وما صاحبه من ازدراء لمعظم ألوان النشاط

الاقتصادي وعقلية حربية بصفة عامة أثر كبير في انهيار قوة إسبانيا ورخائها.

والأصل الاجتماعي للتحيز العنصري واضح أيضاً فيما يتصل بالعلاقات بين الأوروبيين والأجناس الملونة. وكثيراً ما لوحظ أن الأمم الأوروبية تختلف في موقفها من الشعوب الملونة. ويعتقد الأستاذ تويني أن الأمم الجرمانية والبروتستانتية أظهرت تحيزاً أكثر من الأمم اللاتينية والكاثوليكية، وهو يرجع ذلك إلى تأثير (العهد القديم) الذي كان له تقدير خاص عند البروتستانت والذي يحث (الشعب المختار) على استئصال الكفرة الذين يسكنون أرض الميعاد (Thomson، ١٩٩٥، ٢٠٣) وقد يكون لذلك بعض الأثر في مناسبات بذاتها، ولكنه بالتأكيد ليس السبب الرئيسي. فضلاً عن أن ملحوظة تويني في حاجة إلى تحديدات معينة، ففي الجانب الكاثوليكي كان الإسبان ذوي وعي عنصري شديد ضد المغاربة واليهود، ولكن ذلك يدرع إلى صراعهم الطويل مع المسلمين لامتلاك إسبانيا وإلى عقليتهم الحربية التي نظرت إلى العمل في التجارة والصناعة باحتقار. بين البروتستانت كان الهولنديون متسامحين عنصرياً تجاه الشعوب الملونة في مستعمراتهم. وكثير من العائلات الهولندية الارستقراطية فيها نساء ملونات بين أجدادها. وبصفة عامة صحيح أن الشعوب الكاثوليكية كانت أقل جنوحاً إلى التحيز العنصري من البروتستانت فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية رائدة في أعمال التبشير من الأهالي والعمل على حمايتهم. وجاء البروتستانتيون بعدها، ولكنهم قاموا أيضاً بأعمال جيدة. وفي عصرنا الحاضر تقف الكنيسة الكاثوليكية ضد التحيز العنصري بثبات أكثر من أي مجتمع بروتستانتي. ففي حين أن البروتستانتيين لديهم كنائس منفصلة للبيض والملونين ترفض الكنيسة الكاثوليكية هذا الانفصال، وفي ألمانيا أظهر رجال الكنيسة الكاثوليكية والزعماء الكاثوليك الآخرون إلى حد كبير شجاعة فائقة في التنديد بشرور العنصرية ونظام النازي، في حين يبدو أن الكنائس البروتستانتية كانت أقل مقاومة للنازية، وباستثناءات قليلة بارزة. ويعزو الأستاذ هانركون أصل العنصرية والنزعة القومية، بخاصة في ألمانيا، إلى البروتستانت الذين فصلوا الدين عن السياسة (Thomson، ١٩٩٥، ٢٠٣) فالمذهب الديني الحقيقي يتطلب ولاء المرء كملاً غير منقوص. ولكن الفصل الذي دعا إليه لوثر ترك تسوية كل المسائل غير الدينية للدولة، الأمر الذي أدى إلى نمو مذهب القوة والنزعة القومية. ولا شك في أن هذه النظرية تفسر أحد جذور النزعة القومية ولكنها لا تنطبق على حالة العنصرية وتتجاهل واقعة أن كالفن لم يشارك لوثر في اتجاهه. بل أن الكالفنية جنحت إلى إخضاع الدولة للكنيسة وإخضاع الحياة بأكملها لوصايا الدين. ويبدو أن السبب الحقيقي في الاختلاف بين موقف الكنيستين من التحيز العنصري هو أن الكنيسة الكاثوليكية ظلت نظاماً فوق القوميات يتمتع فيه القس بطابع قدسي وسلطة متدرجة مستقلة عن المجتمع، في حين أن الكنائس البروتستانتية صارت قومية، وأما خضعت للحكومة أو لمجالس أبرشيات، وبذلك اعتمدت إلى حد يزيد أ ينقص على الرأي العام، ومن ثم صارت عرضة لعدوى التحيزات السائدة.

ومما يدل على أنه لا العهد القديم ولا أي عامل ديني آخر كان السبب في خلق التحيز العنصري أن التحيز كان أضعف بكثير، أو غير موجود أصلاً، في الأزمة السابقة عندما كان الدين أقوى بكثير. فحتى الهولنديون في جنوب أفريقيا، الذين يختلفون عن الهولنديين في هولندا أو في جزر الهند الغربية فيما يتصل بموقفهم من (اللون) البشري، لم يكن لديهم فيما مضى اعتراض قانوني على الزواج من النساء الملونات (لانج، ١٩٩١، ٥٨). ويطبق نفس الشيء على التجار الإنجليز في الهند والبلاد الأخرى التي يعيش فيها سكان ملونون. ففي أيام الرحلات البحرية الطويلة الخطرة حول رأس الرجاء الصالح كان النساء البيض قليلاً في المناطق الحارة، وكان الأوروبيون أكثر اتصالاً بالطبقات العليا من الأهالي مما كان عليه الحال بعد ذلك ومما له مغزى أنه في القرن الثامن عشر لعب الزنوج والأفراد الملونون الآخرون من ذوي الثقافة والكفاءة دوراً لامعاً في بلاط مختلف الدول الأوروبية وكانوا يعاملون معاملة الأنداد وتزوجوا سيدات من سلالة المراتب (شكري، د، ط، ١٠٠). وقد كانت الارستقراطية في كثير من الأحيان أقل تحيزاً بكثير في مسائل اللون منها في المسائل المتصلة بالبرجوازية والعمال بعد ذلك. فالامتيازات الارستقراطية لم تتعرض للخطر بالاعتراف ببعض الأفراد، كما أن كثيراً من ارستقراطي عصر (الاستنارة) كانوا أقل تشرباً بروح الأنانية التافهة مما هو الحال في عصرنا.

ويرجع ظهور التحيز العنصري إلى الرق إلى حد كبير، فاستخدام الزنوج بصورة متزايدة كعبيد في المزارع جعل البيض ينعودون النظر إلى الرجل الأسود كمجرد دابة من دواب الحمل، وكان الإنجليز هم أكبر تجار العبيد في العالم، ومن ثم فأنهم اكتسبوا أيضاً هذه العقلية. وفيما بعد أكدت المسيحية والروح الإنسانية نفسها في إنجلترا أكثر من أي بلد آخر وأحرزت أكبر انتصار أخلاقي بتحرير العبيد بيد أن هذا الاتجاه عارضته عدة اتجاهات أخرى جديدة. فاختراع السفن التجارية وشق قناة السويس سهلا الرحلة إلى الهند مما زاد من عدد النساء البيض هناك وجعلا من الممكن تكوين مجتمع أبيض صار مغلقاً في وجه الهنود أكثر فأكثر. وفي أمريكا الشمالية وبلاد الدومينين أدى ظهور قوة العمال البيض والطبقة الوسطى الدنيا إلى اتخاذ إجراءات مشددة ضد هجرة العمال الملونين الذين اعتبروا منافسين خطرين. وفي محاولة لتبرير الدوافع الأنانية التي دعت إلى هذه السياسة عمل دعاتها على تغطيتها بادعاء أنها دفاع ضروري عن المدينة البيضاء ضد همجية السود والصفر وانحطاطهم الأخلاقي (لانج، ١٩٩١، ص٦٢).

ومن ثم فلا ريب في أن التحيز العنصري يرجع أساساً إلى أسباب اجتماعية واقتصادية. فهو جزئياً عقلية الطبقة الحاكمة التي تحتقر العمل اليدوي وتحاول الاحتفاظ بالرق عملياً بالقول بأن الجنس الأدنى أنما جعل بالطبيعة لخدمة الجنس المتفوق. وجزئياً هو أنانية من العمال والتجار البيض الذي يريدون احتكار كل المراكز الطيبة لأنفسهم ومن ثم يرفضون الاعتراف بحق الأجناس الملونة في المساواة أو المعاملة العادلة. وكثيراً ما يكون هذا الموقف ضاراً بالمصالح الاقتصادية والقومية للبيض أنفسهم (قيسي وخمول، ١٩٩٧، ٨٥)

كما يثبت الأصل الاجتماعي للتحيز العنصري أن الشعوب التي لم تكن عبيداً قط والتي أظهرت روحاً حربية، مثل الهنود الحمر وأهالي استراليا الأصليين، لا يظر إليهم البيض باحتقار. فالأمريكيون الشماليون الذي يشمئزون حتى من أقل اختلاط بالدم الأفريقي يعتبرون أن وجود عنصر من الدم الهندي في الشخص لا يحط من قدره، بل يرون فيه ارستقراطية (الادهمي، ١٩٨١، ١٥٧).

٦. ظهور الأيديولوجية العنصرية الحديثة:

أن تكوين الأمة الحديثة يتوقف على التغلب على الانقسامات الاجتماعية التي تقوم على (الدم الأفضل). إذ لا يمكن أن توجد وحدة قومية حقيقية بين أشخاص يحرم عليهم القانون التزاوج أو الاختلاط الاجتماعي، أو حينما لا تكون هناك أية فرصة للمراتب الدنيا في الترقي. ومع ذلك فأن الاتجاه نحو المساواة في المركز الاجتماعي قوبل دائماً بمقاومة سافرة أو مستترة. في القرن الثامن عشر تقدم المدافعون عن طبقة النبلاء الفرنسية برأي مؤداه أن النبلاء انحدروا من نسل الغزاة الفرانك وأن العامة من نسل الرومان والغاليين المهزومين، وحاولوا أن يجعلوا من هذا الرأي حجة لدعواهم في أن

يكونوا في مركز الحكام. وكانت هذه نقطة البداية في جدل طويل حول الأصل العنصري للبناء الاجتماعي وأثره في التاريخ والسياسة والكتاب وعرضت عدة نظريات مختلفة (الادهمي، ١٩٨١، ١٥٧). وقد آثار الادعاء بأن الطبقات العليات تنتمي إلى جنس أسمى من الدنيا معارضة عنيفة وساعد كثيراً على تسميم العلاقات الطبقية وعرض التضامن القومي للخطر. والحقيقة أن الاختلاف في أجناس الطبقات كان قد محا تماماً بالاختلاط أبان العصور الوسطى، ولكن الاختلاف في التقاليد بقي وأدى إلى عداوة حادة بين عقليات النبلاء والطبقة الوسطى جعلت التطور القومي في فرنسا مختلفاً كل الاختلاف عنه في إنجلترا. وبعد ثورة ١٨٤٨ تناول كونت دي جوبينو حجة الارستقراطيين القديمة وصاغها صياغة حديثة بأن جعل النبلاء والعناصر المنتجة ثقافياً في الأمة من الآريين والتيوتون (Thomson، ١٩٩٥، ٢٠٣) وقد اعترف أنه يهدف بهذه النظرية إلى تقويض التحررية ولما كان من المعجبين بالفيودالية فأنه كره بصفة خاصة فكرة (الوطن) التي أطلق عليها (مخلوق فطيع من ابتكار الساميين) وصار جوبينو الرائد الأول للعنصرية الحديثة (Thomson، ١٩٩٥، ٢١٠) ودخل هذا المذهب ألمانيا عن طريق صداقته بريشارد فاجنر ووجد فيها أنصاراً كثيرين. ولم يلق جوبينو في فرنسا نفسها نجاحاً وظل منسياً مدة طويلة إلى أن (لفتت) إليه الأنظار شعبيته في ألمانيا.

فقد دعا فاشيه دي لا بوج وبعض الكتاب الآخرين إلى نظرية أن الطبقات العليا لديها قدر من الدم النورديكي النبيل أكبر مما لدى العامة. ولكن التقاليد القومية الفرنسية تشربت بعمق بروح المساواة وحقوق الإنسان ولم تكن تربة صالحة للعنصرية.

وفي ألمانيا انحسر نفوذ جوبينو بنفوذ هستون ستيوارت شمبرلين (Thomson، ١٩٩٥، ٢١٠) الذي كان أحد تلامذة ريتشاد فاجنر المتحمسين وتزوج أبنته. وكان من أصل إنجليزي ولكنه صار فيما بعد من دعاة الجرمانية المتعصبين ويكره إنجلترا. وكان الإمبراطور وليم الثاني من أصدقاءه المتحمسين وساعد كثيراً في نشر آرائه في ألمانيا (حسن، ١٩٨٤، ١٠٠). وفي شيخوخته رحب شمبرلين بهتلر واعتبره مخلص ألمانيا، والواقع أن عنصرية هتلر ليست سوى مذهب شمبرلين بهتلر واعتبره مخلص ألمانيا. والواقع أن عنصرية هتلر ليست سوى مذهب شمبرلين وقد صيغ ليلائم الجماهير.

وقد استخدم هتلر مذهبه العنصري، كما فعل السابقون عليه من دعاة الجرمانية، في أغراض ضد الديمقراطية ومارس سياسة عدوانية لتحقيق فكره العنصري. فقد اعتبر الجنس النورديكي أو الجرماني النخبة الممتازة في الجنس البشري وأنه لابد أن يحكم الأجناس التي هي أدنى ويستغلها، ولم يستطع طبعاً حتى دعاة العنصرية الألمان أن يقولوا أن ألمان اليوم من دم نورديكي نقي، فقد أثبت العلم أن جميع الأمم مكونة من خليط من الأجناس المختلفة، ولكن دعاة العنصرية ذهبوا إلى أن العنصر النورديكي في الأمة هو العنصر الوحيد الخالق للحقيقة، وأن قيمة الأمة وحقها في مكان تحت الشمس يتوقفان على نصيبها من الدم النورديكي، بيد أنه لا يوجد ما يثبت أن النبوغ وقف الانثروبولوجيا أن اليهود ليسوا جنساً متجانساً بل هم خليط من عناصر مختلفة الأجناس يماثلون في الغالب الأجناس التي يتألف منها أهل جنوب وشرق أوروبا مع خليط من الدم النورديكي والشرقي (حسن، ١٩٨٤، ١٠٢). ولسنا في حاجة هنا إلى مناقشة آراء النازيين في عقلية الجنس اليهودي ومعاملتهم لليهود والرد على ادعاءاتهم. بيد أن فكرة أن نجاح اليهود في التجارة يرجع إلى اتجاهات سلالية متأصلة ليست مقتصرة على النازي أو على ألمانيا وحدها بل منتشرة جداً في بلاد أخرى أيضاً. والحقيقة أن التقدم الاقتصادي لليهود في القرن التاسع عشر يرجع إلى ظروف تاريخية واجتماعية ولا علاقة له بالجنس، فمن الأسباب الكبرى لانتشار اليهود نتيجة للاضطهادات التي تعرضوا لها، وقد أتاح لهم هذا الانتشار تجارباً واتصالات عديدة على نطاق دولي ومعرفة باللغات والأسواق. وفي فترة النمو الرأسمالي جعل ذلك في وسع اليهود أن يصيروا إلى حد كبير الوسطاء الاقتصاديين والماليين والثقافيين بين الأمم المختلفة. وكان نجاحهم كبيراً بصفة خاصة في البلاد التي لا تزال الطبقات الحاكمة فيها متشربة بالفيودالية والروح الحربية وتنظر إلى التجارة على أنها عمل فيه حطة لقدرها، ولم تكن قد نمت بعد طبقة وسطى تجارية، كما كان الحال في أجزاء كبيرة من وسط وشرق أوروبا. فالنبلاء في هذه البلاد كثيراً ما تركوا أمر بيع محصولاتهم الزراعية والتنمية الصناعية لضياعهم في أيدي اليهود، وكثيراً ما كانوا يحمونهم أيضاً من عداء الطبقة الوسطى الوليدة. وهكذا أتيحت لكثير من اليهود فرص استثنائية لتكوين ثروات. بيد أن أبناءهم وأحفادهم سرعان ما حاولوا هجر عالم التجارة والانضمام إلى المهن القانونية أو الطبية أو أن يصيروا كتاباً أو علماء أو موظفين حكوميين. وكقاعدة عامة لم يظهر الجيل الثالث للعائلات اليهودية الثرية اهتماماً كبيراً أو قدرة في مجال التجارة بل ظهر بينهم كثير من ا لمثقفين، وهذا وحده يقضي على التفسير العنصر للنجاح الاقتصادي لدى اليهود (الميسري، ١٩٩٧، ص١٠١).

وقد أشرنا من قبل إلى الظروف التي مهدت السبيل للعنصرية في ألمانيا فقد استغل هتلر الاطماع، الكائنة في قطاعات كبيرة من الطبقات المختلفة، التي تحسد اليهود لثرائهم وأرادوا سرقتهم أو التخلص منهم كمنافسين. بالإضافة إلى أن الانجازات غير العادية التي قام بها عدد كبير من الباحثين والعلماء والمحامين والمؤلفين والموسيقيين والفنانين والمنظمين الاقتصاديين والماليين اليهود برغم أن العالم يضيفها إلى حساب الألمان فأنه تثير نفوراً عنيفاً لدى منافسيهم من الألمان الذين رأوا أن اليهود قد تفوقوا عليهم. كما أن هتلر أراد كبش فداء عالمي تلقي عليه مسئولية جميع الاثار السلبية لهزيمة الحرب الأخيرة، فالألمان لما كانوا من دم نبيل لا يمكن أن تلقى عليهم المسئولية الأولى دون تناقض مع الأساس الذي تقوم عليه العنصرية. ومن ثم كان اليهود هدفاً سهلاً في متناول اليد ليكون رمزاً لقوى الشر وهدفاً ينصب عليه الغضب الشعبي (شكري، د.ط، ١٥٣). بيد أن السبب الرئيسي لتعصب هتلر ضد اليهود هو أن عدداً كبيراً من اليهود الألمان كانوا عصب المعارضة لسياسة الاعتداء بلا رحمة ضد الأمم الأخرى. فكثير من اليهود الألمان كانوا وطنيين متحمسين، بل كان بعضهم من دعاة القومية، كما كان كثيرون منهم بلا اهتمامات سياسية. ولكن لا ريب في أن أغلبية المثقفين ورجال الأعمال اليهود كانوا يحبذون بشدة سياسة من التوفيق والتعاون الدوليين بما يتفق مع تقاليدهم ومصالحهم. وكان عدد كبير منهم من أنشط دعاة هذه السياسة وكان لهم محررين وصحفيين وكتاب، نفوذ كبير على الرأي العام. ومن ثم فأن تصرف هتلر كان منطقياً تماماً عندما قرر سحق اليهود واستئصالهم لتمهيد السبيل لغزو العالم.

وبرغم أن هتلر أطلق على حركته اسم (حزب العمال الاشتراكي الوطني) فأنه من الجلي أن هذا النداء الموجه إلى المشاعر الديمقراطية والاشتراكية كان مجرد ستار لسياسة تقوم على حكم القلة البحت. فهتلر نفسه في كتابه (كفاحي) لم يخف ازدراءه للجماهير. وحتى التعليق الرسمي للبرنامج النازي يتضمن بالإضافة إلى ذلك ملاحظتين شديدتي الازدراء عن (الخليط العنصري التعس) الذي يتألف منه الرجل الألماني العادي. والغرض الحقيقي لسياسة النازي هو إقامة حكم أكثر العناصر عنفاً وقسوة على الأغلبية الساحقة بحجة أنها ذات دم نورديكي متفوق. أما الجماهير فتظل في حالة خضوع بواسطة أيديولوجية أفاكه وتخدير مستمر من ناحية، وبواسطة نظام من التجسس والإرهاب لم يعرف له مثيل من ناحية أخرى. وينسى الشعب الألماني عبوديته عن طريق الإحساس بالفخر بالانتماء إلى أنبيل الأجناس في الأرض

(سيزونوف، ١٩٨٠، ٣٤٤).

٧. القومية العنصرية في ألمانيا (١٩١٩-١٩٣٣)

تتميز هذه الفترة من بروز الروح القومية العنصرية بثلاث أدوار هي:

١. دور عدم استقرار وكانت الجمهورية فيه مهددة على يمينها وعلى يسارها معاً، ويختصر تاريخها بتعاقب الانقلابات. واستمر دور عدم الاستقرار هذا حتى آخر التضخم المالي وإخفاق ثورة لودندورف – هتلر المسلحة في ميونيخ (لانج، ١٩٩١، ٥٣).

٢. الدور الثاني من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ دور تثبيت الجمهورية، وهذا الدور سيطرت عليه شخصية شتريسمان الذي يوجه الشؤون الخارجية، وفي الوقت نفسه، يمارس نفوذاً كبيراً على التطور السياسي الداخلي (البنا، د.ط، ٩٣).

٣. الدور الثالث يبدأ في ١٩٢٩ بالأزمة العالمية لعام ١٩٢٩. وفيه تزعزع النظام الجمهوري بعنف وانهار، وانتهى باستلام هتلر السلطة بداية سنة ١٩٣٣ (البنا، د.ط، ٩٣). وكان تاريخ القومية الألمانية في هذا الدور يتبع تقلبات النظام الخارجي.

وقد بلغت القومية ذروتها في سياق الدور الأول والثاني فيما كانت بين ١٩٢٣ و١٩٢٩ في حالة تراجع واضح.

أما وقد عرضنا الخطوط العريضة للتطور، فمن المهم أن نحدد أسباب نمو القومية في دور جمهورية فيمار. ويمكن إرجاع هذه الأسباب إلى ثلاثة مصادر أساسية (شكري، د، ط، ص١٢٢).

١. النقد الذي وجه لمعاهدة فرساي.

لقد تغذت القومية بعداء الألمان لمعاهدة فرساي التي كما يقولون، لم يفاوض بها، وإنما فرضت على البلاد ومست الشعب الألماني. ونقطة الانطلاق لهذا النقد هي المادة ٢٣١ في المعاهدة التي تعرف مسؤولية الشعب الألماني الجماعية، وتضع مبدأ التعويضات على هذه المسؤولية. وقد أوضح الألمان، منذ البدء، بأنه لا يمكن أن يقبلوا مبدأ مسؤولية الشعب الألماني وحده في إثارة الحرب العالمية، وهذا ما يوضح بسرعة جداً العمل الذي قام به عدد من المؤرخين للبرهان على خطأ هذه النظرية. وقد كثفت هذه الأعمال في مجلة تدعى: (دفاتر برلين الشهرية) التي يوجهها أ.فون فيغيرر. وهدف هذه المجلة رفض نظرية مسؤولية الشعب الألماني وحده. ومن البديهي أن أحزاب اليمين، في ألمانيا، استولت بسهولة على هذه الإثباتات واستخدمت أعمال المؤرخين بغية البرهان على أن الشعب الألماني في هذه النقطة قد مس في سيادته الدولية وخدع. ولكن يجب أن يلاحظ أن هذه النظرية في عدم إنصاف الشعب الألماني لم تستخدمها أحزاب اليمين فحسب، وإنما أيضاً مجموع الرأي الألماني (قبيسي ومخول، ١٩٩٧، ٣٠). ومن الواضح أن هذا الإثبات اثار في البلاد اضطراباً قومياً خطراً مصحوباً بروح الثأر. أما الذين نزعوا إلى إظهار نصيب الألمان في المسؤولية في إثارة الحرب والأخطار التي ارتكبها الزعماء السياسيون الألمان، فقد عوملوا بالحال كخونة للوطن. وعلى التعليم الجامعي ونفوذ الكنيسة وزر ثقيل من المسؤولية في هذا الموقف العام للشعب الألماني.

وقد تعلق بهذه الثورة على المادة ٢٣١ في المعاهدة، الاحتجاج على الأراضي التي انتزعت من ألمانيا. وكانت الاحتجاجات شديدة للغاية. ولاسيما فيما يتعلق بـ دانتزيغ، وميميل، والممر البولوني، وسيليزيا؛ وأخيراً الألزاس – لورين وشلزفيغ الدانماركية. وفي كل هذه المناطق التي فقدتها ألمانيا، أعدت ثورة من قبل التجمعات القومية والجمعيات العديدة التي أنشئت لهذه الغاية وأهمها (رابطة الجرامانية) في الخارج. ومن جهة أخرى، أظهر الألمان بسهولة أن النقاط الأربع عشر التي وضعها الرئيس ولسون قد طبقت في كل مكان في أوروبا على صعيد القوميات إلا في ألمانيا. وكان رفض الحلفاء لاتحاد النمسا بألمانيا أحد العناصر الذي سمم بصورة عميقة الجو السياسي الذي ستعيش به ألمانيا. وهكذا نمت في ألمانيا (حركة مراجعة)، تشكيك. وعندما يضمن شتريسمان، فيما بعد، حدود الغرب، يظهر بأنه يضحي بأغلى مصالح الألمان (Guther، ١٩٥٠، ٧٧).

وأخيراً، حمل احتجاج الألمان أيضاً على قضية التعويضات: فقد ظهر من غير المقبول أن تفرض مبالغ على ألمانيا ولم تحدد أبداً، وتجعل من المستحيل نهوضها الاقتصادي. وكان من السهل على الألمان الاستيلاء على برهنة عدد من الاقتصاديين الأنغلو – ساكسون ضد التعويضات، ويذكر بهذه المناسبة إثبات الاقتصادي كينز بخاصة. وكان رجال الدولة الألمان الذي يحبذون سياسة تنفيذ المعاهدات، يعتبرون آلياً كأعداء، وقضى القوميون الألمان على كثير منهم (قبيسي ومخول، ١٩٩٧، ٣٠). وتتلخص نظرية القوميين في البرهان على أن الأزمات الاقتصادية التي تتألم منها ألمانيا، أزمة التضخم في ١٩٢٣، والأزمة الاقتصادية في ١٩٢٩، ناجمة، في الجزء الأكبر منها، عن العبء الذي تثقل به التعويضات على الاقتصاد. وأظهر القوميون مشروع دوز ثم مشروع يانغ كأدوات استعباد للشعب الألماني. ومن هذه المنازعات نتجت قناعة عند الألمان بأن ألمانيا يجب أن تعتبر منذ الآن كأمة (كادحة) وهذا النزاع بين الأمم (الكادحة) والأمم (المستغلة) ظهر واضحاً بخاصة في قصة شهيرة كان لها تأثير كبير في ألمانيا وهي: (الشعب دون مجال) للكاتب هانز غريم7.

٢. النقد الذي وجه لمؤسسات الجمهورية.

ولم تكن معاهدة فرساي وحدها سبباً في نمو القومية في ألمانيا لأن النظام السياسي ما لبث أن أصبح موضع انتقادات خطيرة جداً. وفي الحقيقة، لقد قبل الألمان بسرعة أن ثورة تشرين الثاني ١٩١٨ قد كسرت قوى مقاومة الشعب الألماني، وأن ثورة تشرين الثاني هذه كانت نوعاً من (طعنة خنجر) في الظهر أجبرت الجيش على الاستسلام. وأن الشعب الألماني لم يغلب في ميادين القتال، ولكن وجدت قوى تفتيت أتت من الخارج ولغمت قدرة مقاومته. ويستنتج من هذا أن على الألمان ألا يتخلوا عن الاعتقاد بتفوقهم ولا عن إرادة توسعهم. ولكن المهم، وهذه هي حجة القوميين، حذف السموم التي أدخلت في جسمه وسببت الهزيمة. وقد حمل هجومهم بصورة أساسية على الاجتماعيين – الديموقراطيين من جهة، وعلى الوسط الكاثوليكي من جهة أخرى، وهما الحزبان اللذان ألفا في ١٩١٩ ائتلاف فيمار، الذي يتهمونه الآن بأنه حاول كسب الثورة لصالحه. ومن هنا خرج عنف القوميين الألمان المعادي للبرلمانية.

٣. نمو الأزمات الاقتصادية

وأعطت الظروف الاقتصادية أخيراً للقوميين غذاءً نامياً دون انقطاع أولاً، لأن التضخم الذي نما في ألمانيا عقب الهزيمة وبلغ نقطة الذروة في ١٩٢٣، كانت له نتائج شديدة الخطورة على صعيد القومية. وفي الحقيقة، إن الطبقات الوسطى في ألمانيا تأثرت بشدة من التضخم وتكدحت مادياً. ثانيا، لأن الموارد التي كانت تعيش عليها هذه الطبقات، والتي شكلها التوفير، زالت. ولكن هذه الطبقات الوسطى لا تريد أن تكون مختلطة مع الطبقة الكادحة. ولذا لا تصف تحت شعار أحزاب اليسار أو أقصى اليسار الاشتراكي أو الشيوعي. ولكنها ستتبنى إزاء الماركسية موقف العداء ولإيضاح سقوطها، لا تذكر تطور النظام الرأسمالي، ولكنها تجعل اليهود ومعاهدة فرساي

والماركسية الدولية مسؤولين عن هذا التطور (Guther، ١٩٥٠، ٧٧) ويرى الكثير من الأفراد أن البؤس الاقتصادي لا يوجعهم، وإنما القلق من فقد مكانتهم و (شرفهم الاجتماعي) والخوف من الانحدار إلى مستوى الطبقة الكادحة الصناعية. والقومية هي رد الفعل الطبيعي لهذه الطبقات الاجتماعية الوسطى التي تسمى تهكماً (الطبقة الكادحة ذات القبة القاسية)، رد فعل ضد الشعور بالانحطاط والصغار، وبالتالي نوع من عاطفة تعويض لخسارة الثورة والنفوذ الاجتماعي. وقد نما الاتجاه المواتية للقومية أيضاً انطلاقاً من ١٩٢٩، بسبب الأزمة التي انقضت على البلاد وبسبب البطالة. ومن الملاحظ أن الأزمات الاقتصادية كانت في تاريخ جمهورية فيمار مؤشراً لدفع القومية: ففي انتخابات أيار ١٩٢٤، حصل الحزب القومي على ١٩.٥% من الأصوات، ليسقط من جديد، في ١٩٢٨، على أثر التصلب الاقتصادي والسياسي خلال أربع سنوات إلى ١٤.٢%. ولوحظت أزمة ١٩٢٩ في انتخابات تشرين الأول ١٩٣٠ في صعود سهم الأحزاب القومية التي حصلت على ما يقارب ٢٥% من الأصوات. في انتخابات تشرين الأول ١٩٣٠ وحد ١٠٧ منتخب قومي – اشتراكي ضج ١٢ سابقاً. ومن الملاحظ جداً أن النسبة المئوية للعاطلين في ألمانيا في دور جمهورية فيمار تزداد دوماً وبالضبط كالنسبة المئوية لأعضاء الحزب القومي الاشتراكي (Grouyet، ٢٢١).

٨. الاتجاهات القومية في ألمانيا الهتلرية:

ان العناصر الأساسية للقومية الألمانية في السنوات الأولى للدكتاتورية الهتلرية يمكن إرجاعها إلى عنصرين اساسين عناصر: العرقية، الاكتفاء الاقتصادي.

١.٨ العرقية:

أخذت العرقية في ألمانيا، في ذلك العصر، مظهرين مختلفين: أولاً المظهر السلبي: أي على الدولة أن ترد بكل قواها ضد عدوى العرق الألماني من الأعراق المنحطة، وبخاصة العرق السامي. ثانياً: المظهر الإيجابي: وهو تحسين العرق من وجهة النظر الكمية، ومن وجهة النظر الكيفية، للحصول على اصطفاء يساعد على وضع أفضل الموهوبين عرقياً في مراكز القيادة (Grouyet، ٢٢١)

١. المظهر السلبي وهو العداء للسامية:

لقد ظهر العداء للسامية في داخل الحزب الألماني قبل وصول هتلر إلى السلطة بكثير. فقد كان الهتلريون في السنوات من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٣ يتهمون اليهود باستمرار، بأنهم يسيئون معاملتهم فردياً. وهكذا انطلاقاً من ١٩٣٢، لم يجرأ أي يهودي على المثول أو الظهور على الكورفور شنايدام في برلين. قد أعلم هتلر، مع ذلك. حتى استلامه السلطة، أن الدين اليهودي لن يضطهد. وكان هذه التصريح منه واسطة لتطمين الأوساط اليهودية في إنكلترا والولايات المتحدة المتنفذة للغاية (حسن، ١٩٨٤، ٩٨). وعند وصول هتلر إلى السلطة غادر نحو ١٥٠٠٠ يهودي ألمانيا. وبقي منهم في ذلك الحين ٤٧٠٠٠٠. ثم أخذت إجراءات الاضطهاد ضد اليهود في ١٩٣٣ و١٩٣٩ ثلاثة مظاهر مختلفة على **ثلاثة مراحل:**

المرحلة الأولى: عند وصول هتلر إلى السلطة: مقاطعة المخازن اليهودية. وقد أعلن على واجهات المخازن: "مخازن يهودية لا تشتروا شيئاً من هنا أيها الألمان". واختفى التاجر اليهودي في دكانه وأحبر على الإصغاء بصبر للشتائم والسخرية التي يسومه بها المناضلون النازيون وهناك تدبير أخطر، وهو أن التاجر اليهودي كان مجبراً على الإبلاغ عن حساباته، ودون أن يجبر بعد على ترك مشروعه التجاري كان مجبراً على التخلي عن امتيازاته إلى آري يستلم إدارة البيت الذي يديره حتى ذلك الحين. ثم لما بدا للحكومة أن يدها مكفوفة أمام الرأي العام. اتخذت عدة إجراءات تهدف إلى دحر اليهود عن المواقع التي نجحوا فيها. وهكذا فإن قانون ٧٨ نيسان ١٩٣٣ يخرج اليهود من الوظائف العامة، ولم يعتبر الإسرائيليين وحدهم يهوداً، وإنما كل مسيحي جده يهودي أو جدته يهودية (الميسري، ١٩٩٧، ٢٣١). ومن الضروري إذن، انطلاقاً من هذا الحين تقديم الدليل الموثق الذي يثبت نقاوة الدم. باستثناء المحاربين وأبناء المحاربين الذين قتلهم العدو. ومن جهة أخرى، إن قانون ٣٠ حزيران ١٩٣٣ يحرم على كل موظف أن يتزوج يهودية، ويخرج من وظائف الدولة المرشحون المتزوجون يهوديات. وتزعم الحكومة لتبرير هذه القوانين بأنها تمنع بذلك الغضب الشعبي من الإفصاح عن نفسه، وتجنب أعمال الإبادة وسفك الدم. وفي مؤتمر نورامبرغ، في أيلول ١٩٣٣ أكد روزنبرغ أن الحزب لا يريد عدوى الأعراق؛ ورفض تمثل اليهود، ولكنه صرح بأن الدولة تتسامح معهم، باعتبارهم ضيوفاً أجانب، وعليهم أن يعيشوا جانباً بعيدين عن باقي الأمة[8] (الميسري، ١٩٩٧، ٢٣١) (هرتز، ٢٠٠٩، ٩٨).

المرحلة الثانية: كانت في قوانين نورامبرغ التي صوت عليها الرايخشتاغ في ١٩٣٥. فقد اتخذ هتلر في هذا المؤتمر موقفاً واضحاً جداً ضد اليهود. وفي ١٥ أيلول ١٩٣٥، سحب الرايخشتاغ من اليهود حقوق المواطنين الألمان، واعتبر اليهود خارجين عن الجماعة القومية، وحاولت هذه القوانين أن تحدد، بدقة شديدة، مفهوم اليهود واعتبر اليهودي الكامل من كان له ثلاثة أو أربعة جدود يهود. واعتبر المتحدر من جدين يهوديين خلاسياً-تسمية أطلقت على يهودي من جدين يهوديين- وقبل الخلاسيون في الجماعة الألمانية على أن يظلوا خاضعين باستمرار لرقابة تمنعهم عملياً من ممارسة مهنتهم، وبالبداهة، من الدخول في خدمة الدولة وأخيراً عدة قوانين، في نطاق قوانين نورامبرغ دوماً، تزعم حماية فضيلة النساء الآريات وهي أن اليهودي لا يمكن بالتالي أن يتخذ لخدمته خادمة آرية إذا كان عمرها أقل من ٤٥ عاما (محمود، ١٩٧١، ٦١).

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الاضطهاد العام الذي أثير بمحاولة شخص يهودي باسم غرينسبان لقتل سفير ألمانيا في باريس. وهذه المحاولة لم تؤد إلى قتل السفير وإنما قتل مستشار السفارة فون رات، في تشرين الثاني ١٩٣٨. وكان هذا القتل في أصل إجراءات عنيفة للغاية اتخذت ضد اليهود في ألمانيا، من إبادة جماعية، وحرق لمعابد يهودية وفرض ضريبة من مليار مارك على الجماعة اليهودية. وانطلاقاً من ذلك الحين، أبعد اليهود عملياً عن الحياة الاقتصادية، من آخر القطاعات التي كان لهم فيها عمل بعد، وحرم عليهم الدخول في المدارس، وفي أماكن البهجة والراحة، وحتى في الحدائق. وكان ذلك أيضاً في الوقت الذي كان فيه وزير الدولة، شاخت، يتصور خطة عامة للسماح برحيل جميع اليهود عن ألمانيا (محمود، ١٩٧١، ٦١)، مصادرة أموالهم، ولكن تنحية شاخت من وظيفته حالت دون تحقيق هذه الخطة. وما من شك في أن الحكومة الهتلرية تصورت إبادة اليهود، ابتداءً من ذلك الحين، في تشرين الثاني ١٩٣٨. فقد تكلمت (الفرقة السوداء) الناطقة بلسان الـ S.S بتدمير اليهود، وتصور هتلر هذه الفرضية في خطاب له في الرايخشتاغ، في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٩، وعندنا نشبت الحرب العالمية الثانية كانت خطط الإبادة الكلية للطائفة اليهودية موضع التنفيذ والانتهاء (الانسي، د.ط، ٥١).

٢. المظهر الإيجابي:

والمظهر الثاني للعرقية في عصر هتلر من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩، وهو المظهر الإيجابي، أفصح عنه أولاً بسياسة الولادة وثانياً بسياسة التعقيم، فبالنسبة لسياسة الولادة ودون أن ندخل في التفاصيل، تجدر الإشارة إلى أنه لوحظ في جمهورية فيمار، تراجع في الولادة، وبالتالي، تقدم في سن الأمة يعود إلى ندرة الزيجات وكثرة الطلاق،

والتحديد الإرادي للنسل، ونمو التعامل بموانع الحبل الذي أخذ في جمهورية فيمار، صفة رسمية. فقد حسب أن حركة عدم الولادة، إذا استمرت، فإن ألمانيا في آخر القرن العشرين لا يكون سكانها أكثر من ٤٥ مليون. وتجاه هذه الحالة ردت الحكومة الهتلرية بشدة، وصرح هتلر مراراً مختلفة بأن الطفل أثمن نعمة للأمة، وأشار إلى صحة العائلة وعدم المساس بها. وهكذا ستقوم سياسة الولادة بالتشجيع بصورة أساسية تنظيم قرض الزواج الذي يرمي إلى الإكثار من الزواج، وأيضاً بالإطفاء التدريجي للقرض بولادة كل طفل. وعزز هذا التشريع أيضاً بصورة غير مباشرة بفرض ضريبة على العزاب، تشكل جزءاً من الموارد المستعملة في قرض الزواج. قد لوحظ ارتفاع سريع في عدد الزواج، وأيضاً ارتفاع سريع جداً في الولادة في الدور ١٩٣٣ – ١٩٣٩. وأحدثت جمعية، جمعية الأم والطفل، للسهر على تطبيق سياسة الولادة هذه (F.R.1937,VOL.11. (862.00pr/221) PP.331-323)

اما بالنسبة لسياسة التعقيم فمن الأفكار الأساسية للنظام الهتلري حماية العرق ضد العاهات الوراثية. وهكذا صوت على قانون ١٤ تموز ١٩٣٣ الذي يقبل بأن المرضى المصابين بأمراض وراثية خطيرة، ومن نموذج غير طبيعي، يجب أن يوضعوا في حالة عدم إمكانية للإنجاب. وأن جميع الأفراد من الجنسين المصابين بأمراض قابلة للانتقال، ويمكن أن يشخصهم طبيب مختص بحيث يجعلهم غير صالحين للإنجاب، بعملية جراحية لا خطر فيها من الناحية الطبية، ويمكن أن يطلب المريض التعقيم أو الوصي على المريض، أو طبيب محلف. وفي هذه الحالة تقرر محكمة خاصة، محكمة الصحة الوراثية للعرق بهذا التعقيم في جلسة سرية وامتد القانون بسرعة إلى المجرمين السادين. وأخيراً صدر في تشرين الأولى ١٩٣٥، قانون لحماية الصحة الوراثية للشعب الألماني، يجعل الزواج مستحيلاً في بعض الحالات المرضية
(F.R.1937,VOL.11. (862.00pr/221) PP.331-323).

والحجج التي قدمها النازيون لحماية هذا التشريع اثنان:

أولاً الاسباب السياسية: فقد جاء في نص قانون الذي قدم من روزانبرغ: "ولماذا لا تطبق على الجنس البشري القواعد التي ساعدت على تحسين جنس الكلاب. إن الإحسان الذي يشاء فهمه هو تخليد الانحطاط والضعف[9]
(F.R.1937,VOL.11. (862.00pr/221) PP.331)-323.

ثانياً الاسباب الاقتصادية: فحسب احصائية الامانية بينت ان المجنون يكلف المجتمع حتى ٣٠٠٠ مارك في العام، والأصم – الأبكم حتى ١٥٠٠ مارك. وخرج من هذا التشريع تنظيم شهادة الصحة الوراثية لإبرام الزواج. وأنشئت عدة مكاتب صحية كلفت بإسداء النصائح الصحية لتأمين الزواج في أفضل الظروف العرقية.

٢. سياسة الاكتفاء الاقتصادي.

هذه السياسة التي وسعتها الدعاية والصحافة النازية، في ١٩٣٣، وأيضاً بعض التجمعات التي لم تكن نازية، ولكنها كانت قريبة من افكارها، مثل جريدة (العمل)، والتي كان هتلر يوجهها بنفسه بجرأة بين ١٩٣٣ و١٩٣٩ ورئيس بنك الرايخ، الدكتور شاخت، أخذت هذه السياسة الاكتفائية مظهرين مختلفين من جهة، كل يراد منه انتقال رؤوس الأموال الأجنبية الكثيرة التي وظفت في ألمانيا خلال دور الازدهار من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٩. وظلت هذه الأموال الأجنبية مجمدة تحت اسم (حجز المارك) مع ذلك يمكن استعمالها في ألمانيا نفسها لشراء بضائع ألمانية. ويراد بذلك طريقة تصدير إجبارية؛ لأن الأجانب كانوا مضطرين للشراء من ألمانيا لئلا يخسروا رؤوس أموالهم (شكري، د، ط. ٦٦).

ومن جهة أخرى، كان المظهر الآخر، لهذه السياسة الاقتصادية الاكتفائية، البحث عن توازن الميزان التجاري بإيقاف الواردات إيقافاً كلياً تقريباً فقد صرح هتلر انه على ألمانيا أن تكفي نفسها بنفسها. ويجب أن تعيش في حدود الإمكان في اقتصاد مغلق. لهذا يجب، جهد المستطاع، خلق طرق تعويض خاصة لتعويض المنتجات التي كانت مستعملة حتى ذلك الحين (شكري، د، ط. ٦٦). واراد هتلر بذلك استعمال عدد من منتجات التعويض مثل الكاتشوك التركيبي، والبنزين التركيبي، والاستعاضة عن بعض المنتجات النسيجية بأخرى مستخرجة من الخشب. وأخيراً، وللمشروبات التي لا غنى عنها، لئلا يمكن إنتاج كل شيء في ألمانيا، يستعمل مع الخارج نظام التقاص أي أن كل وارد لألمانيا يجب أن يقابله تصدير بقيمة مساوية في البلاد المعنية، بواسطة صندوق التعويض. وبهذا النظام لن تخرج الماركات من ألمانيا بالنهاية تخرج ألمانيا بموجب هذه السياسة الاكتفائية، من المبادلات الاقتصادية الدولية[10].

٩. الخاتمة

ان الظروف التي احاطت بألمانيا وادت الى ولادة الفكر القومي المتطرف لم تكن وليدة وقتها، بل تعود جذورها الى المراحل الاولى لتكوين المانيا الحديثة، واستمرت مكوناتها تتفاعل مع كل مراحل تكوينها، ومع كل ما رافقها من حروب و صراعات سياسية و اقتصادية ودينية وفكرية، الا ان العامل الحاسم تمثل بالهزائم المتلاحقة التي منيت بها المانيا في اواخر الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨)، وكذلك حالة العزلة السياسية التي عاشتها المانيا والسحق العسكري لقواتها غذت ذلك الفكر بما يكفي ان ينشا جيلا يقوم بانقلاب جميع موازين القوة لصالح المانيا.

١٠. قائمة المراجع

الأدهمي، محمد مظفر، (١٩٨١)، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، بغداد.

الانسي، فوري، (ب.ت)، تاريخ المانيا النازية: تاريخ وتطور الحركة الهتلرية (١٩٣٤-١٩٤٥) ج١، بيروت.

بافلبينكو، اناتولي (١٩٩٤)، الثورات في العالم المعاصر، ترجمة: دار الشرق العربي، ط١، بيروت.

برينر، ليني، (١٩٨٥)، الصهيونية في زمن الديكتاتورية (النازية، الفاشية، الشيوعية)، ترجمة: محجوب عمر، ط١، بيروت.

تسن، فرغلي على، (٢٠٠٢)، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الإسكندرية.

جمال البنا، ظهور وسقوط جمهورية فيمار: مأساة التخبط في اتخاذ المواقف، القاهرة، د.ت.

حسن، عبد الرحيم احمد، (١٩٨٤)، النشاط الصهيوني خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) الهجرة، التسلح، النشاط الدبلوماسي، ط١، بيروت.

حسين، عدنان السيد، (٢٠٠٩)، تطور الفكر السياسي، ط٢، بيروت.

خليل، بطري، (٢٠٠٤)، الفكر القومي وقضايا التجدد الحضاري، القاهرة.

د.م، (١٩٦٨)، الايدولوجية الالمانية (مصادر الاشتراكية العالمية) كارل ماركس-فريدريك انجلز، ترجمة: فؤاد ايوب، دمشق.

رسو، ان جاك، (٢٠٠٦)، ١٧١٢ – ١٧٧٨. جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة: د. محمد عرب صاحيلا، ط٥، بيروت.

السيد فليفل (٢٠٠٨)، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لجنوب افريقيا "رحلة الانسان الافريقي من العنصرية الاوربية الى الهيمنة الامريكية، القاهرة.

سيرزووف، (١٩٨٠)، تاريخ القرن العشرين، ترجمة: د. نور الدين حاطوم، بيروت.

شغلين، باري، (٢٠٠٦)، قصة العالم الحديث والمعاصر في خمسة قرون، دمشق.

شكري، عادل محم، (د.ت)، النازية بين الايدولوجية والتطبيق.

شكري، محمد فؤاد، (١٩٤٨)، المانيا النازية: دراسة في التاريخ الاوربي المعاصر (١٩٣٩-١٩٤٥) القاهرة.

فيرمي، ادموند، (١٩٥٢)، اقطاب وقادة الثورة الالمانية الكبرى ١٩١٧-١٩٣٨، ترجمة: خيرت فهمي، دمشق.

قبيسي، بشري ومخول، موسى، (١٩٩٧)، الحروب والازمات الاقليمية في القرن العشرين (اوروبا-اسيا)، ط١، بيروت.

كابيزي، بول، (١٩٩٤)، نشوء وسقوط الدول العظمى، ترجمة: مالك البربري، ط١، عمان.

لانج، مايكل لي، (١٩٩١)، ١٠٠ قائد عسكري، ط١، الامارات.

مجموعة مؤلفين، (١٩٨٩)، قاموس المعجم الوسيط في اللغة العربية، اسطنبول.

محمد صالح، محمد و، عبد الكريم ياسين والسامرائي، فوري، (١٩٨٥)، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، بغداد.

محمود، معين احمد، (١٩٧١)، الصهيونية والنازية، ط١، القاهرة.

موريس كروزية، تاريخ الحضارات العام، المعهد المعاصر، المجلد السابع.

موسوعة عالم السياسة، (٢٠٠٦)، تعريف شامل بالسياسة فكراً وممارسة القومية، ج١٤، بيروت.

الميسري، عبد الوهاب، (١٩٩٧)، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة، ط١، القاهرة.

هرتز، فردريك، (٢٠٠٩)، القومية في التاريخ والسياسة. ترجمة: عبد الكريم أحمد، مراهمة إبراهيم صفر، القاهرة.

David Thomson، (1995)، World History from 1914-1950،Oxford،London.

Edward w. Bennett، (1962)، Germany and Diplomacy of the Financial Crisis, 1931، Cambridge.

Gordon A. Craig،Germany: 1866-1945،Oxford.P.32.

Grouyet، Le Monde،Historie fenerale and Civiliasations. F.R.1937،VOL.11. (862.00pr/221)

John Gunther (1950)، Inside Europe،New York, Microhistory and World Timeline،home/18-19thcenurises، RUSSIA1856-1900

[1] يوهان جوتفريد هردر١٧٤٤-١٨٠٣: كاتب وفيلسوف المانى عمل مدرسا وواعظا في الفترة (١٧٦٤-١٧٦٩) في مدينة ريغا الالمانية، أبرز اعماله عن الادب الالماني، محاولة لمراسة أصل اللغة، عن الادب والفن الالماني، اغنيات شعبية، خطابات من اجل دعم الانسانية، يومياتي عن رحلتي في عام ١٧٦٩، للمزيد ينظر (Edward.w. Bennett, 1962, 19)

[2] الشوفينية: تعرف الشوفينية بانها عبارة عن افراط في الوطنية ينتهي الى معاداة جميع الثقافات والدول الاخرى، (مجموعة مؤلفين، اسطنبول، ١٩٨٩.ص٣٣)

[3] في عهد القيصر بيتر الأولى صعد زنجي إلى مركز جنرال في المدفعية. وكان الشاعر الكبير بوشكين حفيده. وفي بلاط لويس السادس عشر كان الفارس الخلاس دي سان جورد يتمتع بالحظوة بسبب مواهبه الكثيرة وكان أيضاً صديقاً شخصياً لأمير ويلز الذي صار جورج الرابع فيما بعد. وفي فينا كان الزنجي المثقف انجلو سليمان موضع تقدير كبير بين الطبقة العليا. ويصف شكسبير عطيل بأنه زندي من أفريقيا، ولكنه كان يعامل باحترام كبير من جانب الارستقراطية في البندقية. MACROHISTORY AND WORLD TIMELINE، home/18-19thcenurises، RUSSIA1856-1900، P55.

[4] والشيء الذي يؤسف له أكثر من ذلك أن كلمة عنصر استعملت بمعنى أمة في معاهدات السلام في ١٩١٩. وقد فسرت إحدى الحكومات النمساوية هذا التعبير المزدوج لأغراض ضد اليهود كانت متناقضة تماماً للمقصود بمعاهدات السلام (بافليتكو، ١٩٩٤.ص٧٥).

[5] من الواضح أن الأيرلنديين لا يستطيعون أن ينسوا أن الإنجليز عاملوهم في مرحلة حرجة بازدراء عنصري، وذهبت كل جهود السياسة البريطانية بعد ذلك في مداواة الجرح إدراج الرياح. وقد أشار بيرك إلى أن فئات الشعب المختلفة في أيرلندا كانت مفصلة عن بعضها كما لو كانت أنواعاً مختلفة من المخلوقات لا أمماً مختلفة فحسب. وقال شيسترفيلد في ١٧٦٤ أن الفقراء في أيرلندا كانوا يعاملون أسوأ من المعاملة التي يلقاها الزنوج من سادهم. (فردريك هرتز، ١٩٩٥ص١١٠).

[6] طوال العصور الوسطى كان الفرنسيون والأسكتلنديون في كراهيتهم القومية للإنجليز يجدون لذة في ترديد قصة أن الإنجليز لهم ذيول مثل الحيوانات، كما صدقت هذه القصة في بلاد أخرى أيضاً. وكانت تحكى في بعض أجزاء إنجلترا عن الأجزاء الأخرى، وفي القرن التاسع عشر سمع بيرينج جاولد من مربيته التي كانت من أهل ديفونشاير أن جميع أهل كورنوول يولدون بذيول، وظل يصدق. وقد كانت هناك شعوب محتقرة مثل (الأجناس الحزينة) الغامضة في فرنسا والتي كانت تعامل مثل المنبوذين، وأن لن يكن هناك من يعرف السبب في ذلك. وفي ألمانيا في العصور الوسطى كانت هناك بعض الحرف، الريفية في الغالب، تعتبر منبوذة مثل الطحانين والرعاة والحلاقين الجراحين والصباغين والحواة والنساجين، ولعل ذلك يرجع إلى ما تتسم به هذه الحرف من طابع ذليل، ولم يكن يسمح لأصحابها أو لأبنائهم بدخول الطوائف الحرفية. (بافليتكو، ١٩٩٤، ص١١٢).

[7] فيما يتصل بالظروف السابقة في جنوب أفريقيا. وفيما يتصل بجزر الهند الهولندية ينظر...، (السيد فليفل، ٢٠٠٨، ص٩٦).

[8] تدل الوثائق الدبلوماسية الألمانية والمذكرات الخاصة بفترة وليم الثاني على أن القيصر كانت تحدوه تحيزات عنصرية قوية ضد الروس والسلافيين الآخرين واليابانيين والصينيين، وحتى الأمم اللاتينية. بيد أن عمه الملك ادوارد السابع أعلن أن اليابانيين لا يختلفون عن بقية الناي إل في لون الجلد، (د. شكري، م د.ت، ص ٣٤).

[9] أن بعض الظروف المعينة التي لا مجال لمناقشتها هنا قد تبرر طبعاً تحديد الهجرة. بل أنه قد يكون من الأفضل تحديد دخول بعض الجنسيات طبقاً لنظام الحصص ولكن التحريم الكامل لهجرة جماعات عنصرية كبيرة لا يمكن تبريره، ومن الجلي أنه نتيجة للنفور العنصري. (السيد فليفل، ٢٠٠٨، ص١١).

[10] لقد ظل موسوليني سنوات يسهر بالعنصرية المناهضة للسامية، ولكنه اكتشف مؤخراً فائدة هذا الابتكار فاستخدمه في أغراضه. وقد لوحظ أن اليابانيين كانوا يشكون بمرارة من أنه لا يوجد لديهم يهود يمكن استخدامهم كبش فداء. (برينر، ١٩٨٥، ص٩٤-١٠٠)

Original Article |**DOI:** https://doi.org/10.14500/kujhss.v3n2y2020.pp70-79